

ادفنوا شهدائكم وانهضوا

2017-04-11 عريب الرنتاوي

أن ينظر بعض "الإسلاميين" لمسيحيي بلدانهم، نظرة تحقير دونية أو كصنف آخر من البشر من الدرجة الثانية، فذلك أمر ندرجه في سياق منظومة ثقافية لا تعترف أصلاً بمفهوم "المواطنة" وترى إليه بوصفه مفهوماً دخيلاً على الإرث الإسلامي... وأن يسترسل هؤلاء في "شيطنة" المسيحيين وإخراجهم من دائرة "الرحمة الإلهية"، بوصفهم كفرة ومشركين، فذلك ما ندرجه في سياق "التحريض" والترويح لـ "ثقافة الكراهية"... وأن يتطور الأمر عند بعضهم لحد استهداف المسيحيين وكنائسهم، بالقتل والحرق، فهذا ما ندرجه في سياق الإرهاب الموصوف، الذي يستحق أعلى درجات العقاب وأشدّها.

لكننا نحار تماماً، ولا ندرى كيف، أو أين ندرج هؤلاء الذين بلغت بهم كراهية "الآخر في الدين" حد ممارسة "الانتحار" في كنائسهم وجوارها، لقتل أكبر عدد منهم، في يوم عيدهم؟... لا ندرى أية منظومة فكرية - تعبوية، تقنع شاباً من هؤلاء، بوضع حد لحياته بيديه، وتحويل جسده إلى "قنبلة عنقودية"، تتطاير شظاياها فتقتل الأطفال والنساء والرجال، وهم في حمأة الاحتفال بالعيد، يرتدون أجمل ملابسهم ويرتلون صلواتهم وأدعيتهم؟

هل سُدَّت الطرق الأخرى للجنة، كالعبادة والصلاة والتقوى والورع وقيام الليل وصوم الشهر وحج البيت والموعظة الحسنة والكلمة الطيبة، ولم تعد ثمة من طريق سالكة لجنان الخلد، إلا تلك التي تمر فوق أنقاض الكنائس وأشلاء المسيحيين؟... ما الذي دار في خلد هذا "الانتحاري" وهو يرصد ويتحضر ويستعد ويجمع العبوات والمسامير لضمان قتل أكبر عدد ممكن من المصلين والمحتفلين؟... ما الذي كان يعتمل في دماغه وهو يتسلل إلى داخل الكنيسة ويسعى في شق الصفوف للوصول إلى أكبر مركز احتشاد لروّادها؟... ما الصورة التي تراءت له، وهو يضغط على "زر" التفجير، موقناً أن جسده سيتطاير مزقاً وشظايا بعد أجزاء من الثانية، مزهقاً عشرات الأرواح وتاركاً عشرات العائلات الثكلى وأعداداً لا تحصى من المصابين بأجسادهم وأرواحهم؟

هل ثمة في إرثنا الإسلامي، مصادر على هذا القدر من "الحقد" و"الظلمة" لينهل منها هؤلاء كل ما يسوغ إجرامهم ويبرر أفعالهم السوداء؟... إن كان الأمر كذلك، فأين العلماء والمفكرين وأين دورهم في إطفاء هذه البؤر وتجفيف تلك المصادر... أين دورهم وعملهم على انتزاعها من عقول أبنائنا، وتسميتها بأسمائها، كمنابع لثقافة القتل والكراهية والعداء للآخر والقتل المجاني الجماعي، من دون "رتوش" ولا تحسينات بلاغية، لفظية أو معنوية... وإن كان الأمر كذلك، فلماذا كل هذا التردد في تنقية التراث وتقطيع طرق انتشاره وتمدده، فنحن كلما أكثرنا من الحديث عن محاربة التطرف، كلما صدمنا بأجيال أكثر تطرفاً، وكلما كسبنا معركة على المتطرفين، كلما بدا أننا نخسر الحرب معهم، فكيف الخلاص من هذه الحلقة الشريرة، وكيف يمكن أن ننقذ أنفسنا ومستقبلنا من بطش هؤلاء وإرهابهم ومعاولهم السوداء، التي لا تنفك تقطع أواصرنا وصلاتنا وتدمر نسيجنا، وتضرب في صميم أعماقنا وأرواحنا وضمائرنا وما تبقى من إنسانيتنا.

أن يقتل أحدهم أطفالاً في عيدهم، فرحين بثيابهم وألعابهم والحلوى التي تنتظرهم، فهذا سلوك مرضي لا يصدر إلا عن مريض، لا يخضع أبداً لمعايير البشر ولا تنطبق عليه أي من سمات الإنسانية... لكن أن يجعل أحدهم من جسده قبلة لقتل هؤلاء وتمزيق أجسادهم الطرية الغضة، فتلكم حالة اعترف بأنني عاجز عن توصيفها، ولا تسعفني اللغة ولا "التحليل النفسي أو السياسي" في تقديم توصيف دقيق لها.

يوم المذابح المتنقلة في كنائس مصر، الذي اختير بعناية شريرة فائقة، في عيد الشعانين، مناسبة لتذكيرنا بما تقاعسنا كسلاً أو تواطؤاً أو جنباً عن القيام به من مهمات في التصدي لهؤلاء... وهو تذكرة لنا جميعاً، بما حصل في العريش وسيناء قبل أسابيع، وبما يحصل طوال الوقت في مدن سوريا والعراق ضد "الآخر في الدين والطائفة والمذهب"... هو تذكرة لنا نحن اللاهين في يومياتنا الفارغة من أي معنى، بأن لا مستقبل لهذه المنطقة، ولا امن لها أو استقرار، بوجود هؤلاء، أو من يشبههم أو يشاطرهم في ثقافتهم، أو من يبرر أعمالهم، أو من يدير ظهره ويشيح بنظره عن جرائمهم.

وأي "لكن" في إدانة هذه المقتلة، ستندرج في سياق التواطؤ مع القتل... فلا عسف النظام وجبروته يسمح بهذه "اللكن"، ولا نتائج زيارة رأس النظام لواشنطن، تجيز "لاكناً" من هذا النوع،

ولا موقفه المختلف من الأزمة السورية، مقبول كعذر ومبرر لإشهارها... إدانة هذه الجرائم فريضة عين على كل مواطن ومواطنة، في مصر وخارجها، لكنها الإدانة غير المشروطة، التي يتعين أن تكون بداية المشوار لا نهايته، فالطريق لاجتثاث هذا "الطاعون" ما زالت مديدة ومريرة، وسيسقط على جانبها ألوفٌ مؤلفة من الأبرياء، ومن كل الأديان والطوائف والمذاهب، فهؤلاء لا يستهدفون المسيحيين فحسب، هم كالنار التي سيصلون بها، تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله.

فاتنا أن نهني مسيحيي بلداننا بالعيد، لكن الجريمة المزدوجة النكراء، تجعل التهنئة واجبة علينا وعلى كل من تبت لديه ذرة من اخلاق وضمير... كل عام وأنتم بخير، ولن تمنعنا ثقافة الكراهية السوداء، من أن ندفن شهداءنا وننهض.

.....

* الآراء الواردة لا تعبر بالضرورة عن رأي شبكة النبا المعلوماتية